

مصطلح الأدب الجاهلي :

معنى لفظة (الأدب) :

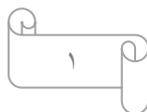
إذا رجعنا الى العصر الجاهلي ننقّب عن الكلمة فيه لم نجد لها تجري على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة (آدب) بمعنى الداعي الى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يدعى اليه الناس ، واشتقوا من هذا المعنى أدب يأدب بمعنى صنع مأدبة أو دعا اليها . ثم تطور هذا المعنى الحسّي الى المعنى التهذيبي الخلقي ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)) ، وفي العصر الأموي أخذت الكلمة تدور حول معنى تعليمي ، إذ وجدت طائفة من المعلمين تسمى بـ (المؤدبين) ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح اليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن . وفي العصر العباسي نشأت علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والنقد.... الخ فأخذت الكلمة بعدا أوسع ، إذ أطلقت على هذه المعارف كافة . أمّا في العصر الحديث فقد أصبحت تعني ((الكلام الانشائي البليغ الذي يقصد به الى التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعرا أم نثرا)) .

معنى لفظة (الجاهلية) :

حمل مفهوم لفظة (الجاهلية) إشكالية حين فسّر بـ (الأمية) ووصم العصر الجاهلي بالتخلف الحضاري والثقافي .



لقد أجمع معظم الباحثين على أن لفظة (الجاهلية) التي أطلقت على عصر ما قبل الاسلام إنما تعبر عن أمية العرب الدينية لا العلمية ، فلفظة الجاهلية في المعاجم وصف للحال التي كان عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر ، فهي ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه ، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهي تقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عزّ وجلّ وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم ، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميّة والطيش والغضب ، ففي سورة البقرة : ((قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)) وفي سورة الأعراف : ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) وفي سورة الفرقان : ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)) ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وواضح في هذه النصوص جميعا أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الاسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحميّة والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

الرواية :

كانت الكتابة معروفة في العصر الجاهلي ، بل كانت شائعة فيه ، ولا أدلّ على معرفة العرب بالكتابة من تشبيه الشعراء الجاهليين الأطلال بالخط الدارس ، من ذلك قول امرئ القيس :

لمن ظلل أبصرته فشجاني كخط زيور في عسيب يمانى

وقول حاتم الطائي :

أُتعرّف أطلالا ونوياً مهدماً كخطك في رقّ كتابا منمنما

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

عرفت الديار كرسم الكتا ب يزيره الكاتب الحميري

ويدور هذا التشبيه كثيرا في أشعارهم ، ممّا قد يدل على أنّ كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إنّ فريقا منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدّثونا عن لقيط بن يعمر الإيادي وعدي بن زيد العبادي ، إذ كانا كاتبين في البلاط الفارسي ، وممّا لا شك فيه أنّ الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة . وفي السيرة النبوية أنّ الرسول الكريم (ص) جعل فداء الأسرى ممّن يعرف القراءة والكتابة في بدر أن يعلمّ الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة . والحق أنه ليس بين أيدينا أيّ دليل مادي على أنّ الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم .

ومن يرجع الى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائما الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها الى آفاق الجزيرة ، يقول المسيّب بن علس :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدة مني مغلغة الى القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثّل وسماع

ويقول عميرة بن جعل نادما على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في ردّه :

ندمت على شتم العشيرة بعد ما مضت واستتبّت للرواة مذاهبه

فأصبحت لا أسطيع دفعا لما مضى كما لا يردّ الدرّ في الضرع حالبه

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت الأداة الطيّعة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هي طبقة الشعراء أنفسهم ، كأوس بن حجر الذي أخذ عنه زهير بن أبي سلمى ، وكان زهير راويتان هما ابنه كعب والحطيئة وعن الحطيئة أخذ هدبة بن الخشرم العذري ، وعن هدبة أخذ جميل بثينة ، وعن جميل أخذ كثير عزة ، وطبقة أخرى هي طبقة الرواة العلماء وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي .

أولى النثر :

لا يمكن الجزم بأن ما وصلنا من النثر الفني يمثل الجذور الأولى لهذا الفن ، لأننا وإن عثرنا على نص نثري قديم جداً ، فإننا سوف نفاجأ بأنه سيق بلغة لا تختلف عن لغة راوي هذا الخبر ، والسبب أن روايته بلفظه قد يعسر فهمها ، لأنها لغة أقوام بائدة اختلفت عن لغة العصور التالية اختلافاً جوهرياً ، لذا عمد الرواة لتحويلها الى لغتهم المعاصرة .

أما أولية هذا النثر ، فإن هناك مؤشرات تفيد بأن النثر قد ارتبطت أوليته بمعطيات دينية ، شأنه في ذلك شأن الشعر ، فهناك طلاس السحرة ، والكهّان ، والعرفان التي كتبت في صورة رقي وتعويدات ، وكان بعضها ينقش على الحجر ويوضع في أبواب المدن لطرد الشر واستجلاب الخير ، إذ كان لكلام الكهّان أثره في النفوس بعد أن ألقوا في روع الناس أن لهم خوارق تفوق تصور البشر ، وأن لهم اتصال بالغيب . إن هذا الأمر يؤكد ما للجانب الروحي من علاقة وثيقة بحياة العرب الأدبية ، والاجتماعية على حد سواء .

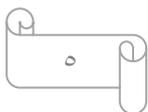
مصادر دراسة النثر الجاهلي :

- **كتب الأمثال :** وهي أقدم المصادر ، وقد عرفنا بوساطتها أغزر أنواع النثر الجاهلي ، ومع أن المؤلفات الأولى للأمثال لم تصل إلينا ، إلا أننا نستشف من مؤلفات الجيل الثاني أنها قد احتوت على أعمال العلماء الأوائل مع إضافة مادة جديدة ، ومن أهم مؤلفات الجيل الأول ، صحيفة صحار بن العباس العبدى ،

وكتاب عبيد بن شريه الجرهمي وغيرهما ، ولعلّ أقدم ما وصلنا في هذا المجال كتاب الأمثال للمفضّل الضبّي (١٦٨هـ) ، وهو عالم ثقة وهو من رواة الشعر أيضاً ، وطريقته أن يذكر المثل ويشرحه مستطرداً الى ما يعترضه من لغة أو خبر أو يوم من أيام العرب ، إذن فهو يحوي على مادة غزيرة ورصيلاً لغوياً وتاريخياً وأدبياً ، وهناك كتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨هـ) ، والمستقصى من أمثال العرب للزمخشري (٥٣٨هـ) .

• **كتب التفسير والشروح** : أهمها تلك التي تفسّر آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) ، مثل تفسير الطبري ، وهناك شروح في غير علوم القرآن والحديث ، مثل شروح الدواوين والمجموعات الشعرية ، وهناك مؤلفات اختصت بشرح النثر ويأتي في مقدمتها شرح ابن أبي الحديد (٥٨٦هـ-٦٥٥هـ) على نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي (٤٠٦هـ) ، وفيه كل ما نسب الى الإمام علي (ع) من خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواظ ، وما يهمننا هو الشرح لا المتن ، فقد ساق إشارات الى فترة ما قبل الاسلام سواء جاءت على شكل قصة أو طرفة أو خطبة أو خبر .

• **كتب السير والتاريخ والبلدان والمغازي** : ليست جميع كتب السير معتمدة في نصوصها النثرية ما عدا السيرة النبوية لمحمد بن هشام ، وإلا فإن معظم السير وخاصة الشعبية قد دخلها الوضع مثل سيرة المهلهل بن ربيعة (الزير سالم) ، وسيرة عنتر ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، فإنها في الغالب تحوي على منافرة أو مفاخرة أو خطبة موضوعة ، إلا ما وثقناه عن طريق مقابله مع نص مشابه له في مصدر آخر . ومع ذلك تظل هذه السير الشعبية بالرغم من نثرها المصنوع مصدراً لدراسة الحياة العربية قبل الاسلام ، لأن مؤلفها اجتهد كي يقدم صورة مطابقة لواقع الحياة القديمة محتدياً النصوص الأصلية النادرة التي وقعت بين يديه ، إذ قلدها ليحاكي الأصل . وتقدم كتب التاريخ رصيلاً ضخماً في القصص مثل تاريخ الطبري ، وكتاب المغازي لوهب بن منبه ، ومروج الذهب للمسعودي ،



وتاريخ اليعقوبي ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، ومعجم ما استعجم للبكري ،
على أن جميع النصوص النظرية هنا لا ترتقي في صدقها وأصالتها وفنها الى ما
تحويه كتب الأمثال .

• **كتب اللغة والأدب** : وأهمها كتب النحو والأدب والبلاغة والفقہ والمعاجم ، وما
يُميّز النصوص النظرية في هذه المصادر هو القصر ، لأن موضوع الشاهد هو
المقصود . من هذه الكتب (الكامل) للمبرد ، و(العمدة) لابن رشيق القيرواني ،
و(الأمالى) لأبي علي القالي ، و(البيان والتبيين) للجاحظ وغيرها .

أنواع النثر:

أولاً : الخطابة :

الخطابة فن من فنون النثر ولون من ألوانه ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد
على الإقناع والاستمالة والتأثير ، فهي كلام بليغ يلقى في جمع من الناس لإقناعهم في
رأي ، أو استمالتهم إلى مبدأ أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم في دنيا أو آخرة .

أهميتها :

والخطابة ضرورية لكل امة في سلمها وحربها ، فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى
الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين من الزعماء والمصلحين ، فهي ضرورة من
ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية وكان للخطابة شأن عظيم في العصر
الجاهلي وكان للخطيب مركز ممتاز لا يقل عن مركز الشاعر حتى أن أبا عمرو بن
العلاء يقول : (إن الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر).

فالخطابة اذن ضرورة من ضروراتهم وحاجة من حاجاتهم ، يتخذونها في السلم وسيلة
في المفاخرة والمنافرة ويصطنعونها في الحرب لتثبيت الجنان ، وتحميمس الجبان ، وبعث
الحمية في النفوس ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف.

عوامل ازدهار الخطابة :

يرجع ازدهار الخطابة في الجاهلية الى عدّة عوامل أهمّها :

- ١ - الحرية التي لا يحدّها سلطان ، ولا تقيدّها حكومة .
- ٢ - القتال الدائم بين القبائل وما يتطلّبهُ من تحميس أو حض على ثار .
- ٣ - حب المفاخرة المتأصل في نفوس العرب .
- ٤ - تشويق الكلام ، وما جبلوا عليه من فصاحة .
- ٥ - ابتذال الشعر آخر الأمر في التكسب .
- ٦ - اختصاص الرؤساء والزعماء بها .

موضوعاتها :

إما موضوعاتها فكانت تدور حول الحث على القتال ، والاخذ بالثار ، والدعوة الى الصلح والسلام ، والتفكير من الحرب وويلاتها ، والمفاخرة بالمواعظ والعصبيات ، والسفارة بين القبائل العربية ، أو بينها وبين جيرانها ، والتعازي والتنهاني ، والاستجداء وتأمين السبل ، وحراسة التجارة ، كما كانت تدور موضوعاتها أيضا ، حول الزواج والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والتبشير برسوله ، كما سنرى في خطب قس بن ساعدة ، هذا ومن أشهر الخطباء في العصر الجاهلي : قس بن ساعدة الأيادي ، واكثم بن صيفي التميمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وحاجب بن زرارة التميمي .

السنن والتقاليد المتبعة في الخطابة :

لقد تواضع الخطباء على تقاليد يلتزمون بها في خطبهم أبرزها : إنّ الخطباء كانوا في المواسم يتسنّمون الرواحل ليراهم القاصي والداني ، ويلقّون على رؤوسهم العمائم لتزيدهم وقاراً ، ويشيرون أثناء خطبهم بالعصي والقسي لكي يؤثّروا في نفوس الناس . ويمتدح في

الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قوي الحجّة ، حاضر البديهة ، قوي الشخصية ، قادراً على إقناع الناس .

وكانوا يعيرون فيه التعرّ في الكلام ، والارتعاش والخوف من لقاء الناس ، والاسراف في الحركات المعبرة ، وعدّوا ذلك دليلاً على إنطاق الجوارح بما يعجز اللسان عن النطق به .

أنواعها :

شهد العصر الجاهلي انواعاً من الخطب تختلف باختلاف الدواعي التي تقتضيها ، وأشهر الانواع : خطب المنافرة ، وخطب الوعظ ، والخطب الحماسية ، وخطب الزواج .

خطب المنافرة : وهي لون من ألوان المفاخرات التي كانت تقع بين سيدين يزعم كل واحد منهما انه اعظم سؤددا ، واعزّ نفرا ، ومن هنا سميت بالمنافرات ، حيث يأخذ كل واحد منهما بذكر مآثره في الشجاعة والكرم ، وغيرها من المثل الانسانية الرفيعة ، فاذا فرغ منها اخذ في ذكر مآثر رجالات بيته ، ثم مآثر سادات قبيلته ، ومن هذه المنافرات : مناصرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل حينما تنازعا الرياسة وجعلا قطبة بن سنان الفزاري حكما بينهما ، فمضى كل واحد منهما يذكر مناقبه ، فهي شبيهة بمعركة انتخابية يتنافس فيها زعيمان من زعماء السياسة للفوز بتأييد الجماهير وثقتها ، فقال علقمة لعامر :

والله اني لأكرم منك حسبا

وأثبت منك نسبا

وأطول منك قسبا

فقال عامر لعلقمة :

والله لأنا خير منك ليلا ونهارا

انا أنحر منك للّقاح

وخير منك في الصباح

وأطعم منك في السنة الشياح

خطب الوعظ : ومن اشهرها خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ ، وهي خطبة طويلة نقتطف منها هاتين الفقرتين يقول قس:

أيها الناس

اسمعوا وعاوا

أما بعد :

فانه من عاش مات

ومن مات فات

وكل ما هو ات آت

مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون

أرضوا بالمقام فأقاموا

ام تركوا هناك فناموا

الخطب الحماسية : ونعني بها الخطب التي تقال في التحريض على القتال ، ولاشك ان هذا النوع أكثر خطبهم بعد المنافرات ، نظراً لكثرة تفاخرهم بأيامهم ، ومن اشهرها خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني التي خطبها في "ذي قار" اذ قال وقد التقى الزحفان ، وقد تقارب القوم من القوم:

يا قوم

هالك معذور

خير من ناج فرور

انّ الحذر لا ينجي من القدر

وان الصبر من اسباب الظفر

المنيّة ولا الدنيّة

النار ولا العار

واستقبال الموت خيرٌ من استدباره

خطب الزواج أو الاملاك : في هذا النمط من الخطب يُعلن الخطيب مناقب الخاطب ليظفر بالقبول من اهل المخطوبة ، وربما نهض خطيب من قوم المخطوبة ، فتكلم فيكون الكلام رداً لبقا يؤنس الناس ويترجم مكارم الاخلاق.

وهذا الضرب من الخطب لا يخلو من اعنات للخطيب وكدّ للخاطر ، ولعل السبب في ذلك ، المأزق الذي يوضع فيه الخطيب ، فالأفكار لا تخلو من مجاملة ومصانعة ومذاهب القول محدودة بالمدح الهادف الى الظفر بالقبول ، ولذلك يتوخى الخطيب الصدق ، وسوق الفضائل ، ومن أشهر الخطب المشهورة في هذا المجال ، خطبة أبي طالب (رض) في خطبة السيدة خديجة (رض) للرسول الكريم (ص) اذ قال :

الحمد لله

الذي جعلنا من زرع ابراهيم

وذرية اسماعيل

وجعل لنا بيتاً محجوجاً

وحرماً امنأ

ثم ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن اخي

من لا يوزن بأحد الا رجحه

ولا يعدل بأحد الا فضله

وله في خديجة رغبة

ولها فيه مثلها

وما كان من صداق

ففي مالي

خصائصها الفنية :

تتميز الخطابة بجملة من الخصائص أهمها :

- الاستهلال : يستهل الخطباء الجاهليون خطبهم بعبارات مختلفة تناسب المخاطبين ، مثل عبارة (أما بعد) ، التي غالبا ما يستهل بها قس بن ساعدة خطبه ، وكقولهم يا معشر العرب ، أو يا قوم ، أو يا أيها الناس ، وما الى ذلك من العبارات .
- قصر الجمل : وتكاد تكون متساوية في الطول ، وكلماتها موزونة ومسجوعة .
- احتفالها بالصنعة الفنية : كالسجع والجناس والطباق والتوازن ... الخ ، وذلك للتأثير في المتلقي .
- الاستشهاد بالشعر والأمثال .
- جمال العبارة وتأثيرها في السامع : يتوخى الخطيب في خطبته انتقاء الالفاظ الرشيقة والمؤثرة ، حسب ما تملي عليه طبيعة الموقف والمناسبة ، وذلك للتأثير في سامعيه .
- الإيقاع : كما يحاول الخطيب أن يختار الفاظا ذات جرس موسيقي متميز للتأثير في متلقيه .

ثانياً : الأمثال :

جاء في المعجم العربي ان جذر كلمة (مثل) يدل على مناظرة الشيء للشيء ، والمثل ،النظير، وهذا مثل هذا أي نظيره . والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يذكر مورى به عن مثله في المعنى .

أما في الاصطلاح الأدبي : فإن المثل "هو جملة من القول مقتضبه من اصلها ،أو مرسلها بذاتها ، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت منه الى كل ما يصقده منها من غير تغيير يلحقها في لفظها "وواضح ان هذا التعريف يجمع بين الحكمة والمثل ، فالمقتضبة من اصلها هي المثل الذي له اصل وقصة وحادثة معينة ، والمرسلة بذاتها هي الحكمة التي ينطق بها الحكيم بعد الحكيم بعد طول التجربة وعمقها .

وأشهر المؤلفات التي وصلتنا في الامثال: كتاب "أمثال العرب" للمفضل الضبي ، وكتاب "الأمثال" لأبي عبيد القاسم بن سلام و"جمهرة الامثال" لأبي هلال العسكري ، و"مجمع الامثال" للميداني .

والامثال أصدق شيء يتحدث عن اخلاق الامة وتفكيرها وعقليتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها، وبصوّر المجتمع وحياته وشعوره أتمّ تصوير، فهي مرآة للحياة لاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية ،وهي اقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنها لغة طائفة ممتازة ، أما هي فلغة جميع الطبقات.

ومما يجدر ذكره ان الامثال يصعب تميز الجاهلي منها من الاسلامي لاختلاطهما ببعض الرواة والمؤلفين ،ولكن ما يشير اليه المثل من حادث او قصة أو خبرهما يتصل بالجاهلية يساعد عن معرفة الجاهلي وتمييزه من الاسلامي مثل "ما يوم حليلة بسر"وقد يدل على جاهلية المثل ان يكون مخالفاً لتعاليم الاسلام ومبادئه مثل " أنصر اخاك ظالماً أو مظلوماً" و "اليوم خمراً وغداً أمراً" أو ان ينسبوا المثل الى الجاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه

وتأريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة مثل : أكثم بن صيفي ، وربيعة بن خدار ، وهرم بن قطبة الفزاري ، وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة العامري .

خصائصها الفنية :

- الإيجاز : إذا كان الإيجاز ظاهرة تميّز اللغة العربية ، فهو في الأمثال شديد التركيز والتكثيف ، ولذلك شاع في الأمثال الحذف واضطر النحاة إلى التأويل والتقدير في أعرابها .
- الشهرة والتداول : لكي يأخذ الكلام صفة "المثل" لا بد من شهرته وتداوله وكثرة دورانه على السنة الناس وشيوعه بينهم .
- احتفالها بالصنعة البديعية كالسجع والجناس والتوازن وغيرها من العناصر الفنية التي تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة ، وتستثير النفوس والعواطف وتملك القلوب والمشاعر . فمثال السجع : (ليس من العدل سرعة العذل) ومثال الجناس : (ربّ قول أنفذ من صول) ، ومثال التوازن : (إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد) ،
- صيغ وتراكيب جوامد لا تتغير غير خاضعة لقواعد النحو والصرف مثل "أعطِ القوسَ باريها" بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ، "والصيف ضيّعتِ اللبن بكسر التاء في مخاطبة الواحد والواحدة والأثنين والاثنتين والجماعة.
- التصوير : مثل "قد بيّن الصبح لذي عينين" قد استعير لفظ الصبح للدلالة على الحق و"لا يجتمع السيفان في غمد" والمراد بالسيفين البطلان.
- الإيقاع : زين العرب أمثالهم بتوقيعات صوتية جميلة تيسّر تداولها ، وتفتح لها القلوب والاسماع ، كالسجع والتوازن والجناس والطباق ، وربما توافر لبعضها الوزن الشعري ، أما لورودها في قصائد ومقطوعات وأما لأن الحس الرهيف الذي شارك في صوغها أطلقها موزونة مثل (ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل) .

ثالثاً : سجع الكهّان :

السجع في اللغة الصوت المتوازن ، أما في الاصطلاح الادبي فالسجع هو الكلام المقفى ... وسجع تسجيعاً تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه ، كأن كل كلمة تشبه صاحبها والسجع سمّي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله .

والسجع في الجاهلية ضرب من الكلام التزم فيه الكهّان لا يفارقونه ، والكهّان - كما تصورهم أخبار العصر الجاهلي - طائفة من الناس كانت تدّعي التنبؤ ومعرفة المغيبات ، وكل كاهن كان يدّعي أن له تابعا من الجن يسمى رؤياً ، يسرق له السمع ويكشف حجب الغيب ، ويستطلع ما سيكون ، وكان العربي الجاهلي يصدق الكاهن احياناً ويفزع له ، ويستشيريه في المعضلات ، ويستصححه في جلائل الأعمال ، كعقد حلف والكشف عن قاتل ، واشعال حرب ، ويحتكم اليه في خصومة أو منافرة أو تعبير رؤياً ، وقد يستبق الكاهن قومة ، فيتنبأ لهم بما سيقع ، فيحذرهم كارثة تهددهم ، أو غزواً يدبر لهم ، وحكم الكاهن في أغلب الأحوال كان مقبولاً لايرد ، وقضاؤه كان نافذاً لاينقض ، فاذا شاعت للكاهن شهرة ، وأثر عن تنبئه الصدق في بعض المواقف اتسع نفوذه وجاوز حدود القبيلة التي ينتمي إليها .

ومن أشهر الكهّان في الجاهلية : سطيح الذئبي ، وشق بن مصعب الانباري والمأمور الحارثي وخنافر الحميري وعوف بن ربيعة الاسدي الذي حرّض قومه على الثورة على حجر بن الحارث - والد امرئ القيس الشاعر - وعلى قتله ، وبجانب هؤلاء الكهّان جماعة من الكاهنات ومن أشهرهنّ الشعثاء ، والكاهنة السعدية واليزراء كاهنة بني رثام ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت : ((واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوداق ، ان شجر الوادي ليأدو حَتلاً ، ويحرق أنياباً عُصلاً ، وأنّ صخر الطود ليُنذِرُ ثكلاً ، لاتجدون عنه مَعلاً)) يأدو : يخدع - مَعْلَد : مَلْجَأ

خصائصه الفنية :

- أبرز ما يميز سجع الكهان انه جمل قصيرة شديدة الایجاز ، مسجوعة وموزونة وتكاد تكون متساوية في طولها .
- غموض العبارات والألفاظ : يعمد الكهان في كثير من الأحيان الى التوكأ على العبارات المبهمة والالفاظ الغامضة حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه ، ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، اذ يؤمؤون الى ما يريدون أيماءً ، وقلماً صرّحوا أو أوضحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل انهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى من المعاني اذ يتخذون له اشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذي يقوم على الابهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع وجوهاً من الخدع ، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .
- كثرة الأقسام والایمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك مايدل على اعتقادهم في هذه الأشياء ، وان بها قوى وارواحاً خفية ومن اجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكّدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين . ويمثّل النص المذكور أنفاً (واللوح الخافق .. الخ) مثلاً صالحاً على هذه الخصائص جميعها .

رابعاً : القصص :

يزخر تراثنا الأدبي بنتاج وافر من القصص ، ويعود سبب كثرة هذا النوع النثري الى

سببين :

١- طبيعة الانسان العربي المتميزة بسعة الخيال وانطلاقة الفكر وطواعية لغته في أداء هذا النوع الفني .

٢- البيئة الطبيعية المناسبة : إذ كان العرب يتسامرون في الليالي المقمرة ، يسردون الأحداث القديمة التي توارثوها عن آبائهم .

وقد وردت هذه القصص باللغة العربية الفصيحة على الرغم من قدمها ، لأنها دونت في القرن الثاني الهجري فاكتملت أسلوب هذا العصر ، إلا أن حدث القصة ظلّ يحمل طابع العصور القديمة ممّا لا يمكن الطعن بانتمائها الجاهلي ، علماً أن هذه الحالة واردة في جميع الآداب الكلاسيكية النثرية ، وذلك لندرة التدوين ومثال ذلك : الملاحم السومرية ، وملحمة كلكامش فضلاً عن قصص الأنبياء والملوك والأمم الغابرة التي وردت في القرآن الكريم .

ومن المهم أن نشير الى أن مؤلف معظم هذه القصص مجهول ، ومؤلفها هو المجتمع آنذاك ، أمّا الذي حملها من جيل الى جيل فهم الرواة ، وأهم رواة القصص : أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي جمع قصص أيام العرب ، وابن اسحاق وابن هشام اللذان اختصّا بالسيرة النبوية فضلاً عن الفضل الضبي ، ويونس بن حبيب ، وغيرهم .

أنواع القصص :

١ - القصة التاريخية : إن هذا النوع من القصص يسرد السيرة الذاتية للعرب وأحوالهم وكل ما يخصّ شؤونهم ، فضلاً عن أسماء أجدادنا القدماء وانتقالهم من شبه الجزيرة العربية ، وأسماء العرب البائدة وقصصهم لقوم (عاد وثمود وطسم وجديس) .

ومن القصص التاريخية (أيام العرب) التي تقوم بسرد بطولات العرب وحروبهم ، وما سجّله أبطالهم من انتصارات ، فقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب الى أن تناولها رواة القرن الثاني للهجرة فدوّنوها تدويناً دقيقاً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق . وكانوا يقصّون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية وقصة (الزباء) ممّا نجده ماثولاً في تاريخ الطبري والسيرة النبوية لابن هشام ، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني .

ومن القصص التاريخية المشهورة قصة بناء قصر (الخورنق) الذي بناه رجل يدعى (سنمار) للملك النعمان بن المنذر الذي غدر به فيما بعد .

٢ - قصص الأسفار والحروب :

كانت للعرب في جاهليتهم أسفار ورحلات كثيرة تمخّضت عنها حكايات وقصص كثيرة صوّرت أهوال السفر ومشاق الطريق والمخاوف التي تعترضهم ، ومن أبرز هذه الأسفار رحلة قوافل كسرى التجارية الى اليمن وما تبع هذه الرحلة من معركة سمّيت بـ(يوم الصفقة) وهو من أيام الجاهلية ، انتقم فيه الفرس من بني تميم لنهبهم هذه لقوافل كسرى . وكذلك رحلة أبي طالب (ع) الى الشام .

أمّا قصص الحروب فهي أهم من قصص الأسفار ، لأن الجزيرة العربية شهدت حروباً طويلة كحرب البسوس ، إذ تعدّ هذه الحرب -على ما فيها من مبالغة- من أشهر الملاحم العربية وقصة حرب داحس والغبراء ، وحروب الأوس والخزرج .

٣ - القصص الشعبية أو (الأساطير) :

الأسطورة : هي قصة خيالية ذات أصل شعبي والاسطورة لها أصل من التاريخ أو من تراث الشعب ، لكن هذا الأصل امتزج بالخيال وداخلته قوى غير مرئية كالجن والشياطين والأمور الغيبية الخارقة والغول ، فضلاً عن قصص الحيوانات الناطقة . إن هذه القصص تمثل مرحلة متقدمة من حياة الشعوب البدائية .

وقد علّل الجاحظ نشأة الأساطير وشيوعها بقوله : (إن القوم لما نزلوا البلاد عملت (أثرت) فيهم الوحشة والانفراد ... وإذا توخّش الانسان تمثّل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرّق ذهنه .. فرأى ما لا يرى .. وتوهّم الشيء اليسير أنه عظيم وجليل ..) .

هذه هي الأسس النفسية والاجتماعية لأساطير العرب ، ومن أشهر هذه الأساطير ، قصة زرقاء اليمامة ، وقصة لقمان ونسوره السبعة ، ومن هذه النسور (لُبد) ، الذي بموته مات لقمان بعد أن اختار أن يعيش عمر سبعة نسور وقد ذكره النابغة في قوله :

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبد

أمّا قصة (الحيّة والكنز) فهي قديمة ومعروفة بين العرب ، خلاصتها : أن أخوين نزلا بوادٍ تحميه حيّة رقطاء فنهشت الأول ومات ، فخافت أن يثأر منها الأخ الثاني فاتفقت معه أن تدفع له كل يوم ديناراً ، فلما كادت أن تستكمل الديّة غدر بها وضربها على رأسها بفأس ، لكنه أخطأها ... فدعاها الى معاودة الصلح والاتفاق فرفضت الحيّة ذلك قائلة : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك وقبر أخيك . وقد وظّف النابغة هذه الاسطورة في شعره معاتباً (بني مرّة) قائلاً :

بلا عثرةٍ والنفس لابلدّ عاثره
وما انفكت الأمثال في الناس ساره

وإني لألقى من ذوي الضغن منهم
كما لقيت ذات الصفا من حليفها

٤ - القصة الاجتماعية :

إن هذا النوع من القصص يختص بحياة الناس اليومية ، في الحب والزواج ، والغنى والفقر ... الخ ، ويغلب على هذا النوع الطابع الشخصي ، لأنها تقصّ وتسرد جزئيات حياة الناس بخلاف القصة التاريخية ، ومن ذلك قصة المرقش الأكبر وحبّه لابنة عمّه (أسماء) التي زوّجها أبوها من رجل مرادي (من قبيلة مراد) ، مستغلاً سفر المرقش ، فلمّا عاد أخبروه بأنّها ماتت ، ثمّ علم فيما بعد بزواجها ، فخرج يطلبها في البلاد الى أن مرض وهو في الصحراء ، فمرّ به راجع لزوج (أسماء) ، فأخبره المرقش بقصته فذهب الراعي اليها حاملاً خاتم المرقش ، فلمّا علمت بأمره جاءت مع زوجها المرادي وحمله حتى مات عندها .

من الملاحظ أن القصة الاجتماعية إذا تعرّضت لشخصية ملك أو رئيس فإنّها تصطبغ بالموضوعية ، كما هو الحال مع قصة (الحارث بن عوف) الذي يعدّ من سادات العرب ، فبعد أن خطب ابنة (أوس بن حارثة الطائي) ، وأخذها الى ديار قومه ، رفضت العروس أن تقام الولائم ، والعرب تقتل بعضها بعض وذلك في أيام حرب (داحس والغبراء) بين (عبس وذبيان) ، فقال الحارث : إني لأرى همةً وعقلاً ، فحمل من الديّات ثلاثة آلاف بغير وفي هذه المناسبة قال زهير بن أبي سلمى مادحاً :

يميناً لنعم السيّدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

وهناك أنواع أخرى من القصص كقصص المجنون وما يتصل باللهو ومجالس الشراب من عبث ، كقصة (دائرة جلجل) التي نكرها امرؤ القيس في معلقته ، وهناك النوادر وهي قصص الفكاهة التي يسردها الندماء للملوك ، وهناك الخرافات وهي الأحاديث المستملحة من الكذب ثمّ تطوّرت الى قصص موضوعة على ألسنة الحيوانات ، الغاية منها التريفة والوعظ ، وتقديم النصح بقالب قصصي مثل قصة (كليلو ودمنة) .

الخصائص الفنية والموضوعية للقصة :

تتميز القصة بجملة خصائص فنية نجملها بما يأتي :

- **القدم :** إذ يرى الباحثون أنها سبقت الشعر لأنها لا تحتاج الى جهد فني أو فكري .
- **تعبيرها عن الانسان العربي :** استطاعت القصة القديمة على بساطتها أن تكشف طباع العرب وأفكارهم وأهوائهم ، وأن تخلق نوعاً من التلاؤم بينهم وبين أسرار الطبيعة .
- **المشاركة في صنع القيم :** شاركت القصة الشعر في صياغة المثل العليا ، وتحديد القيم ، وتوضيح العلاقات بين القبائل ، وبين الفرد والقبيلة .
- **تصوير البطل الرمز :** إذ اختارت القصة القديمة شخصيات مرموقة جعلتها رموزاً للفضائل مثلاً : عنتره يصور أعلى درجات الشجاعة ، حاتم يصور غاية الكرم ، والسموأل يمثل الوفاء ، وقصة رهن درع امرئ القيس لديه معروفة في التراث الأدبي .
- **بساطة البنية الفنية :** إذ توفرت في هذه القصص أهم عناصر القصة من أحداث وسرد وفكرة وهدف وشخصيات وزمان ومكان ، ومع أن هذه العناصر لم تكن تامّة النضج في القصة القديمة ، إلا أن هذا الأمر لا ينتقص منها كفن كان في بدايته ظهوره .

خامساً : الرسائل والعهود :

إن كتابة الرسائل والعهود ترافق الحضارة والاستقرار ، ولما كانت الممالك العربية التي لا تشغل من الجزيرة العربية إلا أقلها ، لا تتضوي تحت ألوية الملوك من العرب ، لذا قلّت الرسائل والعهود المدوّنة . ومن هـ ١١ القليل الرسالة الشعرية للشاعر لقيط بن يعمر الإيادي الى قومه حي حذرهم من غزو كسرى لهم ، إذ كان يعمل كاتباً ومترجماً في ديوان كسرى ، قائلاً :

الى الجزيرة مرتاداً ومنتجعاً

يا أيها الراكب المزجي مطيته

إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم

الى آخر القصيدة التي وصلت الى قومه واستعدوا وهزموا الفرس ، مما أثار غضب كسرى الذي عرف بالأمر ، فأمر بقطع لسان لقيط ، وخلع عينيه ، ومات لقيط ، ونجت قبيلته .
أما (صحيفة المتلمس) ، فهي شديدة الإيجاز تشبه البرقية ، يأمر فيها ملك الحيرة عامله في البحرين أن يقتل المتلمس ونصّها : (باسمك اللهم من عمرو بن هند الى المكعب ، أما بعد : فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) .

إنّ الرسائل في العصر الجاهلي على أنواع ، فمنها ما هو مكتوب ومنها ما يروى شفاهاً على اللسان ، وهناك ما يرسل من عربي الى آخر في بلاد العرب ، وما يرسل من عربي الى أجنبي خارج بلاد العرب .

أما أهم ما يميّز الرسائل سواء الشفهي منها أم المكتوب فهو :

الإيجاز : إذ تعبّر الرسائل عن الأفكار بأقصر الجمل وأوضح الألفاظ ، ومن مظاهرها الإيجاز الزهد في المقدمات والولوج الى الغرض بلا تمهيد ، أو التمهيد بجملته تقليدية مألوفة هي ذكر اسم الله ، وقد تميّزت رسائل قريش بأنها تبدأ بعبارته (باسمك اللهم) ثم استبدلت بعد الاسلام بعبارته (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ويبدو أنّ هذه المقدمة كانت متبّعة قبل الاسلام ، إذ أوردها القرآن فاتحة لرسالة النبي سليمان (ع) الى ملكة سبأ .

العهود :

عرف العرب العهود شفهيّة ومكتوبة ، ومن أشهر العهود المدوّنة في الجاهلية : الحلف الذي عقده عبد المطّلب بن هاشم مع خزاعة ، إذ يروي الطبري أنّ المتحالفين دخلوا الكعبة وكتبوا كتاباً منه : (باسمك اللهم .. هذا ما تحالف عليه عبد المطّلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على التناصر والمواساة .. حلفاً جامعاً ..) .

ويبدو أنّ الرسائل والعهود متقاربة في الاسلوب ، فالنصوص قصيرة ، والمقدمات أقصر ، والسجع والصور ، والإيقاع الصوتي ، يضيفي على فصاحة اللغة زينة لا تغطي على وضوح الفكرة .

سادساً : الوصايا :

وهي لون من ألوان الأدب النثري التربوي عرفها الأدب العربي القديم ، يوجهها الموصي الى أهله حينما يحس بدنو أجله ، الغاية منها النصح والإرشاد والترغيب في التزام الفضائل والتخلّق بالأخلاق الكريمة ، وتتطوي على مقدار كبير من الحكم والأمثال ، وتتضمّن خلاصة الخبرة في الحياة ، وتعبّر عن نظرة الموصي الى الدنيا وأحوالها .

ومن أشهر الوصايا ، وصية ذي الاصبع العدواني لابنه أُسَيْدَ لَمَّا دنا أجله قائلاً : (يا بني إنّ أباك قد فنى وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إنّ حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، فاحفظ عني : ألن جابك لقومك يحبّوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ ، فإنّ لك أجلاً لا يعدوك ، وصنّ وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك) .

الخصائص الفكرية والفنية للوصايا : إنّ أهم ما يميّز الوصايا في الجانب الفكري ، أنها تعكس الفكر الهادئ العميق والحكمة ، والواقعية في النظر الى مشكلات الحياة واستتباط المعاني من التجربة الحياتية الحيّة لا الفلسفة النظرية .

أمّا في الجانب الفنّي فتتسم الوصايا بالجمع بين اللغة المرسلة والاسلوب المسجّع ، والجمل القصيرة المتوازنة ، والاعتماد على الأساليب الانشائية من أمر ونداء ونهي .